

8

قصص الصحابة

الفتي
الحكيم

سلوى العثاني

دار اللطائف
للطباعة والنشر

الفتى الحكيم

(مصعب بن عمير)

[لقد رأيت مُصعباً هذا .. وما بمكة فتى أنعمَ عند أبويه منه ،
ثم ترك ذلك كله حُباً لله ورسوله] صدق رسول الله ﷺ

هو فتى من أبهى فتيان قريشٍ مظهرًا وأكثرهم أناقةً
ووسامةً .. وهو فوق هذا من أحكم شبابٍ جيله وأكثرهم
رزاقًا ووقارًا ورجاحةً عقلي ..

وُلِدَ وشبَّ في أسرةٍ من أكثر أسرِ مكة ثراءً .. وكان
موضعَ تدليلٍ من أبويه فمنحه من أسباب الرفاهيةِ والأناقةِ
كما منحه الحيلةَ جميل القوامِ والبشرةِ والملامح ليصبحَ زينةَ
المجالسِ ومضربَ الأمثالِ ..

هو (مصعب بن عمير) .. (مصعب الخير) .

ذهبَ (مصعب) في رحلةٍ صيدٍ خارجَ مكةَ .. ولما عادَ شعرَ
بأن شيئًا جَلَلًا قد حدثَ .. فالناسُ يتكلمون .. يتهايمسون
ويتصايحون .. والجميعُ يحكي عما حدثَ من يومينَ عندما



اعطى (عمره الأمين) جبل الصفا ونلخى في القبائل .. ولما
اجتمع الناس حوله قل لهم : "إني رسول الله إليكم خلاصة
والى الناس عامة" ولأن مصعباً كان شاباً حكيماً وخصيفاً ..
فقد أراد أن يعرف أكثر ليكون حكمه على الأمر صحيحاً
وسليماً . وكان لابد أن يسأل .. فسأل صديقه (جبير بن
مطعم) .. وأخبره الأخير أن (عمره) قل إنه يتلقى وحياً من
ربه وأنه تلا بعض هذا الوحي ..

فسأله (مصعب) : ولماذا قل ؟

وتلا جبير :

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُنْذَرِينَ وَأَسَدِرُ
عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ الْبَغْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فَإِنْ غَضَوَكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا فَعَمَلُونَ﴾

(الشعراء : 213 - 215)

وتأمل (مصعب) هذا القول وتعجب .. إنه حديث حلو
طلي .. لم يسمع مثله من قبل .. فهل هو حقاً وحى من عند
الله لما لا ؟! إن عمره معروف بالامانة والصلقي مع
الناس .. فكيف يكذب على الله؟

راح (مصعب) يفكر وقد ملأ عليه هذا الأمر عقله وقلبه
فزهّد في الطعام .. وجفله النوم .. وامتلأ رأسه بالأسئلة
وصنّم في الصباح أن يجد لأسئلته الجائزة إجابة شافية .

إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم) فلدته قدمه كما قلته قلبه
فجلس بين يدي رسول الله يسأله ويسمع منه صائق
الحديث .. وقبل أن يغادر (مصعب) المكان كان قد نطق
بالشهادتين أمام رسول الله

كان (مصعب بن عمير) سيداً في قومه ، ثرياً ، مرهوب
الجانب ، فهو لا يخشى غضب ساقية قريش من إسلامه ،
لكنه كان فقط يخشى غضب أمه (خنسل بنت مالك) التي
كانت واحدة من أثرياء مكة المعدودين يهابها ساقية قريش
ويعسبون لها ألف حساب ، وكانت امرأة عتيلة متطرفة في
إيمانها بالفتها الحجرية التي تسجد لها وتحرس على
إرضائها .. لهذا فقد أخفى (مصعب) عنها إسلامه فكان
يصلي سراً ويتسلل في المساء إلى (دار الأرقم) فيستزود من
لقاء الرسول الكريم بزيادة الإيمان . لكنه كان من المستحيل
أن يظل الأمر سراً في مكة .. هذه المدينة التي اهتزت



جنباتها بهذا الأمر العظيم - نزول الوحي على محمد -

وعلمت (خُنس) بحبر تردد ابنها على (دار الأرقم) ..

وسأله وأنها الإجابة : (لقد آمنتُ بالله الواحد الذي خلق

السموات والأرض والليل والنهار وجعل الحياة والموت) .

ووقف (مصعب) ثابتاً شائعاً مزهواً بإيمانه واتباعه لنور

الهُنَى .. وازدادت ثورة الأم وأمرت عبيدها أن يقيدوا ساقِي

ابنها وأن يُلْقُوا به في مكانٍ مظلم من البيت ..

ولم تهتز شعرة من راس الفتى المؤمن الذي أنار الإيمان

ظلمة عبيده والذي أشيعه ورواه ذكرُ الله . فلم يَجُعْ ولم

يظمأ .. وانتظر رحمة الله ..

وجاءته رحمة الله فتمكن من الهرب وانضم إلى قافلة

المهاجرين إلى الحبشة إلى أن أذن الله لهم بالعودة إلى مكة

حيث كان رسول الله وصحبه يواصلون دعوتهم للدين

الحق ..

وما أن دخل (مصعبُ بنُ عمير) مكة حتى قصَّ النبيُّ

الكرِيمُ .. يُلْقَى في أحضانِه همومُ رحلته ويتزود من حديثه

ومن نصيحته .. وجلس (مصعبُ) وسَطَ رفاقه المسلمين

الذين تَلَّوْا لَمَظْهَرَهُ وَثِيَابَهُ. وَشَعَرَ الرَّسُولُ بِمَا يَدُورُ فِي
أَذْعَانِهِمْ. فَأَشْرَقَ وَجْهُهُ الشَّرِيفُ بِإِتْسَامَةٍ عَذِيبَةٍ وَقَالَ:
(لَقَدْ رَأَيْتُ مُصْعَبًا هَذَا، وَمَا بِمَكَّةَ فَتَى أَنْعَمُ عِنْدَ أَبِيهِ
مِنْهُ .. ثُمَّ تَرَكْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَبَالًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ).

وَكَانَتْ عَوْدَةُ (مُصْعَبٍ) إِلَى مَكَّةَ فُرْصَةً كَيْ تَحَاوِلَ أُمُّهُ أَنْ
تُرْثِيَ عَنْ دِينِهِ .. لَكِنْ هِيَ هَاتَتْ لِلْقَلْبِ الْعَاسِرِ بِنُورِ اللَّهِ أَنْ
يَبْحَثَ عَنْ مَغْرِبَاتِ الدُّنْيَا وَكَانَ الْفَرَاقُ بَيْنَ الْفَتَى وَأُمِّهِ ..

كَانَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ قَوَّامُهَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا قَدْ
بَايَعُوا الرَّسُولَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عِنْدَ الْعُقْبَةِ لِيَكُونُوا نَوَاقِدَ
مُسْلِمَةِ الْمَدِينَةِ الْمُبَارَكَةِ (مُنَوَّرَةً) بَنِيهَا .. وَعَدَ هَؤُلَاءِ يَنْشُرُونَ
دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَهْلِيهِمْ .. وَاسْتَجَابَ الْكَثِيرُ لِدَعْوَتِهِمْ ..
لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَحْتَاجُونَ لِفَقِيهِ بَيْنَهُمْ يَعْلَمُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ
لِصَحِيحِ الدِّينِ .. فَارْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ أَنْ (أَبْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا
مِنْ أَصْحَابِكَ يَفْقَهُنَا فِي الدِّينِ وَيُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ) فَمِنْ هُوَ
الرَّجُلُ الذَّكِيُّ النَّفِيُّ الْقَوِيُّ الْإِيمَانِ الْحَصِيفُ الْحَافِظُ لِكِتَابِ
اللَّهِ فَمِثُّ الْخُلُقِ حَسَنُ الْبَيَانِ الَّذِي يَصْلُحُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ!؟

وَاخْتَارَ النَّبِيُّ (مُصْعَبَ بْنَ عَمْرِو) لِهَذِهِ السَّفَارَةِ وَهَنَّاكَ مَنْ

هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ سَيِّئًا وَأَقْدَمُ إِسْلَامًا .. لَقَدْ وَجَّهَهُ أَهْلًا لَهُ
الْمِهْمَةُ .

ويغادر (مصعبُ بنُ عُمَيْرٍ) مكةَ مرةً أخرى .. يغادر البلدَ
التي وُلِدَ فيها والتي عاشَ فيها صباه وشبابه .. وتركها ليتولى
مهمةً جديدةً في سبيلِ الله .

لا بد أن (مصعبًا) كان مشغولًا بالهمة التي هو مقبلٌ
عليها فلم يشعرَ بمشقة السفر .. ولا بد أنه كان يفكرُ فيما
يمكنُ أن يلاقي من صعابٍ ومشاق .. لكنه كان - بغير شك -
- واثقًا من تأييدِ ربه له .. ولا بد أنه كان يستعيدُ نصائحَ
رسولِ الله ودعاه له ..

وعندما لاحَتح الحيلُ يثرَبُ من بعيدٍ رَفَعَ (مصعبُ) كَفِيَّه
إلى السماءِ داعيًا ربه أن يوفِّقه إلى ما يحبُّ ويرضى .

واختار (مصعبُ) منزلَ (أسعدُ بنِ زُرارة) ليكونَ مقرًّا
لإقامته كما اختارَ صاحبَ البيتِ ليكونَ عونًا له في مهمته ..
ولم لا وهو أحدُ المهاجرين في بيعةِ العقبة ١٩

لا بد أنها كانت مهمةً شاقةً وصعبةً فهو ليسَ أمامَ بناءِ

قديم يهلمه ويبني غيره على نَسَقٍ جديدٍ .. لكنه أمام
عقيدة .. نعم .. عقيدة لها في نفوس أصحابها تاريخٌ
وذكراتٌ وتقديسٌ وتكريمٌ فكيف يَسْتَلُ هذه العقيدة
المتصلة ويضع مكانها عقيدة أخرى ؟ .. إنها فعلاً مهمةٌ
صعبةٌ .

ونمضي الأيامُ (بمصعب بن عمير) ينتقلُ بين الناسِ في
الدورِ والأسواقِ .. في أماكنِ العملِ وفي تجمعاتِ التجارة ..
يدعوهم إلى سبيلِ الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ويحادلُهم
بالتي هي أحسنُ .. وتثمرُ الكلماتُ المضيئةُ نوراً بعد نورٍ ..
وتتلاها قناديلُ الإيمانِ في القلوبِ قلباً بعد قلبٍ حتى يكاد
لا يخلو بيتٌ في يثربَ كلها من إنسانٍ يرددُ أن (لا إلهَ إلا
الله .. محمدٌ رسولُ الله) .. وعندما أتى موسمُ الحجِّ .. شهدت
الصحراءُ بين مكةَ ويثربَ قافلةً مباركةً يزيدُ عددُ أفرادِها
على سبعينَ مسلماً تلبُدُ تكبيرُها سكونَ الكوفةِ .. الله
أكبرُ .. الله أكبرُ .. لا إلهَ إلا الله ..

متاعبُ عديلةَ تعرضَ لها (مصعبُ بنُ عمير) في أثناءِ
هذه المهمةِ الجليلَةِ ، ومواقفُ سَجَّلها التاريخُ بوقائعها

وأخرى ابتلعتها الأحداثُ فراحت في طَيِّ النُسيان ..
ولنقفُ هنا عندَ الموقفِ الذي أسلم فيه واحدٌ من أشرفِ
العربِ العدودين هو (أَسِيدُ بنِ حَضِيرٍ) سيدُ الأوسِ
المعروفِ بالكرمِ والجودِ والشجاعةِ في إبداءِ الرأيِ
والاستبسالِ في الحربِ .

كان يومًا عاديًا في حِيلةِ (مُصْعِبِ بنِ عُمَيْرٍ) في (يثربَ) ..
فها هو يجلسُ في منزلٍ (أسعدُ بنُ زُرارةَ) يحيطُهُ المسلمون ..
ويستمعون إليه قارئًا للقرآنِ ومُجيبًا على الاستفساراتِ
مرقدًا لما عرفه من سنةِ رسولِ الله عليه السلام .. كان
المستمعون وكان على رؤوسهم الطيرُ يتطلعون إلى وَجْهِه
(مُصْعِبِ) الذي أناره الإيمانُ ويستمعون إلى صوتهِ
الخاشعِ .. واقفين معه عندَ كُلِّ لفظٍ قرأني وعند كلِّ توجيهٍ
نبوي .

وبين الحينَ والحينِ .. يقطعُ سكونُ المكانِ طَرِيقَ خفيفٍ
على بابِ الدارِ يستلُفُّ صاحبهُ في الدخولِ والانضمامِ إلى
مجلسِ الهنئى والإيمانِ ، وفجأةً يسمعُ الحضورُ دَقًّا عتيقًا
متتابعًا .. وقامَ صاحبُ الدارِ يستطلعُ الأمرَ فإذا (بأسيدِ بنِ

خُضِرَ) شامراً حربته .. تفضح أسارير وجهه عن غضبه
وثورة .. وما أن رأى (مصعباً) وقد تحلّق حوله مريدوه
ويستمعون إليه حتى صاح قائلاً : (ما جاء بك إلينا تُسِفُّ
ضعفانا وتغيّر أحوالنا؟! اعتزلنا إن كان لك بنفسك
حاجة ..)

ويهلوه المؤمن الواصل .. الذكي الحكيم .. رد عليه
(مصعب) : "أو تجلس فتسمع .. فإن رضيت أمراً قبلته ..
وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره" .

يا له من ذكاء ومنطقٍ عاقل .. لقد رأى (مصعب) أن
العقل هو اللغة التي يجب أن يتحدث بها مع هذا العاقل ..
ولأنه واثق من صديقٍ دعوته .. فقد كان واثقاً من نجاح
مهمته ..

وأدار (اسيد) الأمر في عقله .. فهذا غريبٌ عن ديارنا وله
عندنا واجب الضيافة .. ثم هو يدعوني لأسمع قبل أن
أصدر حكمي .. وهذه هي الحكمة وعين العقل ..

واستدّ (اسيد) حربته إلى الجدار وجلس يستمع إلى قول
(مصعب) .. يسأل ويسمع الإجابة .. ويدير في رأسه فيجد

مطلق عقلاء وقول حكماء .. وشرق النور في قلب (أسيد)
وتنهال وجهه بالفرحة وينجبه بالحديث إلى (مصعب بن
عمير) :

(ما أحسن هذا الكلام وأجله .. كيف تصنعون إذا أردتم
أن تدخلوا في هذا الدين؟)

وينفر قلب (مصعب) من الفرحة والرضا ويحييه :
(تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة
التوحيد .. وتصلي) وأسرع (أسيد) فاعتسل وطهر ثيابه
ونطق بالشهادة أمام (مصعب) الذي علّمه الصلاة .. وقام
الرجل ليصلي ركعتين مؤدّعا جاهليته مستقبلا أيام الإسلام
والتوحيد ..

ولنعد لقائمة هذا الصحابي العظيم (مصعب بن
عمير) .. فقد عاد مع قافلة النور إلى مكة .. وما أن دخلها
حتى أسرع إلى النبي بملا عينيه وقلبه من وجهه الكريم ..
راح ينقل إليه البشرى .. فقد انتشر الإسلام في (يثرب)
وأعلن زعمائها وأشرافها وقادتها إسلامهم .. لقد ثبت
وجود الإسلام في (يثرب) ..

ويرجع (مصعب بن عمير) إلى (يثرب) ليكون في استقبال رسول الله مع إخوانه من المسلمين الأنصار ..
وتسعد هذه المدينة المباركة بالنبي المبارك ويتغير اسمها إلى (المدينة المنورة) .. فهي حقاً متورة بالنبي (محمد) ويصحبه الكرام .. ويؤاخي النبي بين المهاجرين والأنصار ويؤاخي بين (مصعب) وبين (أبي أيوب الأنصاري) ..

ويستقر الحال بالمسلمين في المدينة المنورة .. لكن الغيظ والحقد لا يهدآن في نفوس مشركي مكة فيجهزون لغزو المدينة أملاً في تحطيم أركان هذه الدعوة .. ويلتقي الفريقان في (غزوة بدر) والتي كانت هزيمة نكراء للمشركين .. عادوا بعدها إلى مكة يجيرون أذيل الحية والفشل ويندبون قتلاهم ويرسلون في فداء أسراهم.

كان (أبو عزيز) شقيق (مصعب بن عمير) واحداً من حملة لواء المشركين في بدر وأسره المسلمون . ولما علمت أمه بهذا دفعت له أربعة آلاف درهم فداءً .. وكان هذا أغلى فداء قُدِّم لفارس من فرسان قريش ..

لكن معركة (بدر) لم تكن نهاية الصراع العسكري بين



المسلمين ومشركي مكة بل إنها أشعلت نارا الحقد في قلوبهم فجمعوا القبائل وجيشوا الجيوش وبالفوا في السليح وخرجوا يظليون النار من المسلمين .

وكان اللقاء الثاني في (أحُد) .. يومها خرج المسلمون يدافعون عن (المدينة المنورة) عند جبل (أحُد) .. وأعطى رسول الله اللواء (لمصعب بن عمير) واثقا أنه خير مَنْ يُقاتل للحفاظ عليه .. واصطف جنود الإسلام وطلب النبي من الرمة الصمود في أماكنهم حتى يعطى أوامره بغير ذلك .. وتحقق النصر للمسلمين في أول المعركة وانسحبت جنود الشرك غلظة وراعاها الغنائم التي أغرت البعض بترك السلاح للظفر بها .. ونسى بعض الرمة تعليمات رسول الله وظنوا أن المعركة قد انتهت لصالحهم فتركوا مواقعهم .. ويتهم الكفار هذه الفرصة ويعودوا ليهجموا على المسلمين هجمة راح ضحيتها سبعون شهيدا من خيرة صحابة رسول الله منهم (مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ) و(حمزة بن عبد المطلب) .

فكيف كان استشهاد (مصعب بن عمير) ؟

التفت مجموعة من الصحابة حول النبي يدافعون عنه
وهم يعلمون أنه هدفٌ لهؤلاء المعتدين الأتمين .. وكان
(مصعب) - حاملُ اللواء - هو أكثرُ الصحابة استماتةً في
الدفاع عن النبي الذي آمن به .. وكان ينادي بأعلى صوته
(وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل) وقد أكرمه
الله بأن جعلها نصًّا قرآنياً نزل به الوحي ..

وتصدى أحدُ فرسانِ المشركين (لمصعب) فأصابه في عنقه
وقبل أن تسقط الراية تلقاها المؤمنُ الجاهد يسراه .. فهجم
عليه هذا الفارسُ فأصابَ يسراه .. ويحتضنُ (مصعب)
الراية ضامًّا عليها أن تسقط ما دام في صدره قلبٌ ينبض ..

وينقضُ الفارسُ المشركُ برمحِه ليغرسه في جسم
(مصعب) فيسقط شهيدًا محتضنًا رايته ..

وتنتهي المعركة .. ويقفُ الرسولُ عليه السلامُ ومعه
صحابته وسطَ جثثِ الشهداء .. وتجري دموعهم أسفاً على
فراقِ إخوانهم الجاهدين في سبيلِ الله ..

وتحتمُ الستهم :

فَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[الأحزاب : 23]

وَيَحْمِلُ الرُّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْصَرَهُ بَيْنَ صَحَابَتِهِ وَرَفِيقِ
جِهَانِهِ مِنَ الشَّهَدَاءِ وَيَقُولُ : "إِنْ رَسُولُ اللَّهِ يَشْهَدُ أَنْكُمْ
الشَّهَدَاءُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وَأَقْبَلَ عَلَى صَحَابَتِهِ يَقُولُ :
"أَيُّهَا النَّاسُ زُورُوهُمْ وَأَتَوْهُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ .. فَوَ النَّبِيِّ
نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ مُسْلِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا رَدُّوا
عَلَيْهِ السَّلَامَ" .

ولما أراد أصحابُ (مُصْعِبٍ) أَنْ يَكْفِنُوهُ فِي بُرْدَتِهِ .. كَانَتْ
إِذَا غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ كَشَفَتْ رِجْلَيْهِ ، وَإِذَا غَطُّوا رِجْلَيْهِ
انْكَشَفَتْ رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ : "اجْعَلُوهَا عَمَّا يَلِي
رَأْسَهُ" ثُمَّ نَظَرَ إِلَى وَجْهِ مُصْعِبٍ وَقَدْ عَلَاهُ التُّرَابُ وَقَالَ :
"لَقَدْ رَأَيْتُكَ بِمَكَّةَ ، وَمَا بِهَا أَرْقُ حُلَّةٍ وَلَا أَحْسَنُ ثَمَرٍ
مِنْكَ .. ثُمَّ هَانَتْلَا شَعَثُ الرَّأْسِ فِي بُرْدٍ" . صَلَّقَ رَسُولُ
اللَّهِ .